الغربة والاغتراب في شعر عبيدالله بن قيس الرُقيات

إنعام رواقة*

ملخص

يعالج هذا البحث ظاهرتي الغربة والاغتراب في شعر عبيد الله بن قيس الرقيات، أحد شعراء الحزب الزبيري في العصر الاموي، وربطهما بالظروف السياسية والحضارية للدولة الأموية، وموقف الشاعر منهما.

ويدرس أشكال الاغتراب لديه والمتمثلة بـ: الاغتراب السياسي، والاغتراب الاجتماعي، والاغتراب المكاني، معتمدة على النصوص الشعرية.

وسيدرس أيضاً بنية نص الاغتراب بأشكاله الثلاثة: نص وحيد الشريحة وكان غزلياً، ونص ثنائي الشريحة ويتشكل على الأغلب من شريحة المرأة مقدمة يعاني فيها من غربة الحب، والشريحة الثانية، رفض الاغتراب، والشكل الأخير نص متعدد الشرائح: ويتشكل من: شريحة المرأة، وشريحة المكان، وشريحة الاغتراب أو رفضه.

Abstract

The Study treats the phenomena astrangement as exile in the poetry obaidallah bin Qais AL-ruggiat, amember of the zabairy poetry during the umayyad period, This study tries to link these phenomena with the cultural and political conditions of the umayyad and to high light the poet stand from all this.

It also studies the different forms of astrangement presented by the political, social, emotional as geographical in his poetry.

The study focuses on the three different textual forms: the first deals with courtly love, the second consists of an introduction on the beloved and emotional strangement followed by another part on the rejection of strangment. The third form is multisectional consisting of the beloved, the place, the strangement and the rejection of it.

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية.

تاريخ استلام البحث: 2003/3/19. تاريخ قبول البحث: 2004/4/15.

أولاً: المدخل

كان العرب من أكثر الأمم التي عانت من الغربة والاغتراب، ولعل البيئة القاحلة كانت وراء هذه المعاناة، وأنتجت الرحلة في الشعر العربي. وأشار ابن منظور في لسان العرب إلى أن التغريب: هو النزوح عن الوطن، ورجل غريب عن وطنه أي بعيد عنه، والجمع غرباء، والاغتراب: افتعال من الغربة [1].

أما الاغتراب فيعني الانفصال وعدم الانتماء، ويعرفه بعضهم بأنه وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته والبيئة المحيطة به والمحبطة له، وبصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق[2]، وكان أرنولدكاوفمان قد قال: "إن القول بأن شخصاً ما مغترباً هو تأكيد لاتسام علاقته بشيء آخر بسمات معينة تسفر عن سخط لا يمكن تجنبه أو عن افتقاد الشيء بالرضا"[3] ومن الواضح ارتباط الاغتراب بعدم انسجام الشخص مع المجتمع، وغالباً ما يكون المغترب صاحب قيم عليا، ويستخدم الاغتراب لإيضاح السمة الانفعالية التي تصاحب أي سلوك يجبر فيه الشخص على نحو مدمر لذاته[4]. وكان التوحيدي قد أشار في الإشارات الإلهية إلى المغتربين حين قال: "واغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البعداء من كان قريباً في محل قربه"[5]. فالغربة إذاً عدم انسجام الفرد مع المجتمع، وعدم إنزاله المنزلة التي يستحقها ليعمق هذه اللفظة بقوله:"فالغريب من إذا قال لم يسمعوا له، وان رأوه لم يدوروا حوله"[6]. لم يكتف بذلك بل وضح حالات الغريب، فالغريب في الجملة كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف ونهاره لهف، وغذاؤه حزن، وعشاؤه شجن، وخوفه وطن[7].

وكان الشريف الرضي قد عاش الغربة وعاناها، وربطها بالأفضل فقال:

فمالي طول الدهر أمشي كأنني لفضلي في هذا الزمان غريب[8]

واهتم الصوفيون بالغربة والاغتراب وكان ابن باجة قد قال في رسائله: والنوابت هم من لم يجتمع على رأيهم أمة أو مدينة، وهؤلاء هم الذين يعنيهم الصوفية بقولهم: "الغرباء"[9]، ولعل اهتمام المسلمين بالاغتراب يعود إلى الحديث النبوي الشريف الذي يقول:"بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء"[10].

وارتبط الاغتراب بالسياسة وأحسن رايت ملز حين قال: "إن الاغتراب اعتذار شخصي عن فقدان الإرادة السياسية"[11]،وقد تتطور صورة الاغتراب إلى الزهد بالمال والأرواح، وتجلى ذلك في انسحاب الخوارج من الحياة وإقبالهم على الآخرة.

وقال هيجل أبو الاغتراب: إن الاغتراب ينشأ في حضن العمل، وجعله في نوعين: اغتراب سلبي وايجابي، فالإيجابي يتمثل في تخارج الروح وتجليه على نحو ابداعي، واغتراب سلبي يتمثل في عدم قدرة الذات على التعرف على ذاتها في مخلوقاتها.." [12]، وطور ماركس نظرته إلى الاغتراب إذ عد الاغتراب الاقتصادي أصلاً

لجميع أنواع الاغتراب الأخرى، وعادت النظرة الأحادية وهي التركيز على المعنى السلبي إلى مصطلح الاغتراب حتى كادت ان تطمس جوانبه الايجابيه[13].

وتتعدد مفاهيم الاغتراب فمنها: العزلة والشعور بالوحدة والضياع والانفصام عن الذات، وانعدام السيطرة وانعدام المغزى في واقع الحياة، والشعور باللامبالاة والعبثية[14].

ولما جاء الإسلام وأحدث نقلة حضارية نوعية لم يعهدها العرب من قبل توافرت الأسباب الموضوعية للاغتراب، وأحدثت خلخلة في منظومة القيم الاجتماعية، ولعل أهمها تشكيل الدولة، و لم يكن الاغتراب حالة خاصة بابن قيس الرقيات في العصر الأموي، إنما كان سمة من سمات المجتمع الأموي، وقد بدأ يدخل مرحلة التشكيل السياسي والحضاري للأمة، وبناء الدولة القوية أمام الهزات الداخلية التي اعترضته في تلك المرحلة، وكان شاعرنا صاحب رؤية سياسية ما، دافع عنها كثيراً وعوقب عليها من النظام السائد، وخلال تلك الرحلة القاسية في الدفاع عن المبدأ، شعر ابن قيس الرقيات بالاغتراب داخل الدولة، والعشيرة والمكان، وكذا المرأة وسجل تلك النفثات في شعره حتى كادت تكون سمة ديوانه[15].

ثانياً: أشكال الاغتراب:

1- الاغتراب السياسي:

عانى ابن قيس مرارة السياسة بالمقدار نفسه الذي عانى فيه العشق والحب، ويرى طه حسين: إنه أقرب إلى الشعراء السياسيين منه إلى الشعراء الغزلين[16]. وكان ابن قيس زبيري الهوى، فخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان[17].وبدت ملامح الاغتراب السياسي على شعره مبكرة حين أعلن عن نفسه شاعراً في قوله:

منع اللهوَ والهوى ... وسرى الليل مصعبُ

وسياطٌ على اكفّ (م) رجالٍ تقلبُ[18]

فانتماؤه السياسي للزبيريين جعله يشعر بفقدان نعيم الشباب ولهوه وحلاوته، وغاضه أيضاً ما حل بهم من خصومهم الأمويين الذين يمثلون الحكومة السائدة، وظل ابن قيس يدافع عن هواه السياسي حتى قتل مصعب بن الزبير وأخوه عبد الله، فعندها انداح في الأرض العربية يبحث عن الأمن السياسي فالغذائي، حتى وجده عند كثيرة أولاً[19]، فعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ثانياً[20]، فأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ثالثاً[21]، فعبد الملك بن مروان رابعاً واخيراً[22].

ومن محاور الاغتراب السياسي لدى شاعرنا:

1- معاقبة السلطة له على ولائه السابق لابن الزبير.

2- قطع العطاء.

3- موقعة الحرّة.

4- مرج راهط.

ففي المحور الأول أكثر ابن قيس الحديث عن موقف السلطة السائدة تجاهه كونه أحد أعضاء الحزب المعلوض، وهذا قد شكل له حالة من العدائية ارتفع فيها مستوى الضجيج مرّة، وحالة من الهمس الحزين خفت فيها مستوى الصراخ والألم والرفض، فتعمق الكلمة، والإيقاع والصورة، وفي كلتا الحالتين طفت نغمة الشعرية على السطح، وبدت حالة الاغتراب السياسي بارزة معلنة عن نفسها، فقال منتقداً الوضع السياسي:

كلّ يومٍ ألقى ابن شائة ليـ ... سَ عن الشر ما استطاع بآلي

حولـه قومه وقومي بأرضٍ ... حرمٍ دونهم حنين الشمال

وملوك فارقتهم أفردوني ... وصروف الأيام بي والليالي[23]

وبعد أن أشار إلى غربته في المكان، وترك السلطة له نجده يصرخ في الأبيات التالية لتعلن عن موقفه السياسي الذي جاء بفعل موقف السلطة منه، فيسند الحديث إلى خيله التي ستخوض معركة الحقوق قائلاً:

وهزيم أجشّ يستنُّ بالدا ... رع يوم النهاب والأنفال

جرشع يملأ الحزام كأنه الـ ... ـجهد يجلو أديمه بصقال

بدلت بالشعير والخفض والقـ ... ـتّ ومسح الغلام تحت الجلال

غارة الليل والنهار فما تصـ ... ـبح إلا محسة بقتال

فغدونا بهن في غبش الليـ ... ـل دقاقاً كأنهن المغالي

نبتغي دمنة لنا في بني العلا ... تِ نسقي سجا لها بسجال

أدرك الذحل فتية من بني عمـ ... ـرو بصبر النفوس بين العوالي

لو رأتني ابنة النويعم ليلى ... إذ نلف الأبطال بالأبطال

حين تنعى أخاك بالاسل السمـ ... ـر وشعث كأنهن السعالي

لشفى نفسك انتقام بني عمـ ... ـكِ حين الدماء كالجريال[24]

وانتقد اعتماد السلطة الأموية على اليمانية لمقاتلة مصعب بن الزبير القرشي، فترتفع نغمة الاحتجاج إلى رجالات العراق للبحث عن حلول، بله للاستماع إلى موقف بعض رجالات قريش كالزبيرية- ومنهم شاعرهم ابن قيس- الرافضة، لموقعه الحرة، الموقعة الظالمة التي أتت على المتع واللهو، والرغبة بالحياة، والحرية وشعر الغزل والطرب فقال في نص يمدح فيه مصعب بن الزبير بعد المقدمة الغزلية:

وقالت لو أنا نستطيع لـزاركم طبيبان منا عالمان بدائكـا
ولكن قومي أحدثوا بعد عهدنا وعهدك أضغانا كلفن بشانكـا
تذكـرني قتلـى بحـرّة واقمٍ أصيبت وأرحاما قطعن شوابكـا

.....

فمن مبلغ عني خليليّ آيـة عيينة أعني بالعـراق ومالكـا
فهل من طبيب بالعراق لعلـه يداوي كريما هالكـا متهالكـا
فلولا جيوش الشأم كان شفاؤه قريبا ولكنـي أخاف النيازكـا
أخاف من الردى دونها أن أرومها وارهب كلبا دونها والسكاسكا[2]

تسرب الخوف والحزن إلى قلب ابن قيس نتيجة الأحداث السياسية، وهاهو يعاني الخوف والرهبة مما يعمق شعوره بالاغتراب السياسي عن السلطة، ويجعله أكثر تمسكاً بالمعارضة، وكأنه يعطي لمصعب صبغة شرعية لثورته، وبالتالي يصبح ولاؤه لمصعب أمراً طبيعياً فيقنع نفسه بالمصعب وثورته، ولذا لجأ إلى الذاكرة ليقوي حجته على موقفه السياسي وليجوز له نهجه يوم راهط الذي لم يستطع الإفلات من قبضة ذاكرته:

رجال هم الاقتال من يوم راهـط أجازوا الغوار بيننا والتسافكـا
فلا سلـم إلا أن نقود إليهـمُ عناجيج يتبعن القلاص الرواتكـا
إذا حثها الفرسان ركضا رأيتهـا مصا ليت بالذحل القديم مداركـاً
تدارك أخرانا ونمضي أمامنـا ونتبـع ميمون النقيبة ناسكـا
إذا فرغت أظفاره من قبيـلة أمال على أخرى السيوف البواتكـا
على بيعة الإسلام بايعن مصعبـا كراديس من خيل وجمعـاً ضباركـا
تدراكت منهم عثرة نهكت بهـم عدوهـم والله أولاك ذالكـا[25]

ظل يوم"راهط" فتيلة له للاستمرار بنهجه السياسي وبالتالي يرى أنه أكسب الزبيريين صفة الشرعية، ولا ينسى أن يدعم موقفه ذلك برأي ديني فالذين بايعوا مصعباً بايعوه بيعة الإسلام، وكأنه يشير إلى أن الأمويين أو

السلطة السائدة قد خرجت على الإسلام. فعلى الرغم من أن النص يعلن فيه مبدعه عن موقفه السياسي إلا أنه يبحث عن شرعية الرأي السياسي، وكأنه يستشعر الضياع والفشل والاغتراب، ولا ترى فيه الرضا أو الفرح بمصعب بل ترى فيه الأسى الذي جعل مصعبا يثور، وابن قيس يؤيد هذا الثوري، ولذا سيضخم هذا البطل فهو هازم المختار الثقفي الذي لا تختلف على كذبه وفجوره السلطة والأحزاب المعارضة معاً، ولذا غاظه مقتل مصعب وحاجج السلطة بذلك حين قال:

أليس بصاحب الكذّاب لما ... أصاب الناس شؤبوب وبيل
وكاد نساؤهم يلقين غيّا ... تركن وفر عنهن البعول
وأرعن قد جررت إلى عدو ... يزينه التأوه والصهيل
كأن زهاءه لله حُج ... توافى منهم بمنى حلول
تضل العائذ البلقاء فيهم ... ويخطئ رحل صاحبه الزميل
سموت بهم إلى حي بعيد ... لتفجعهم، وأنت لها فعول
وبيننا أنت توجف مستهلا ... بساحة أرضهم لمع الدليل
وآنس غيب رابية سوام ... ترى قطع السحاب بها يزول[26]

كما بدا من النص فقد حاجج السلطة بموقف مصعب من أعدائه، وأعداء الأمة، واعداء السلطة معاً، فلا يبكي مصعبا البكاء الذي اعتدناه في رثاء القادة إنما يحيلنا إلى موقف برز فيه المرثي، قتاله للمختار الثقفي الشخص الذي هدد وحدة الأمة وفكرها، ولم يتصد له أحد سوى مصعب، وكأنه ينعى على السلطة أن تقتل رجلاً قتل أعداءها، بل الأولى أن تحميه أو تتنازل له عن السيادة، فعلى الرغم من ملامح مدح المرثي ومواقفه فإنك لتلامس رنة الحزن التي شرقت بها الأبيات، والفجيعة التي تشر بها الرقيات، والاغتراب الذي سيعانيه نتيجة فقدان هذا القائد الصلب الصلد المسؤول عن الأمة، فإلى من سيوكلها؟

ويتخذ الرقيات من حصار المسجد الحرام مرتكزاً له في مواجهة السلطة إذ سمحت لقبائل اليمانية بحصاره وتحريقه، ومن هنا شعر بمرارة الأسى وعمقت إحساسه بالغربة، فقال:

كيف نومي على الفراش ولما ... يشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي ... عن براها العقيلة العذراء
أنا عنكم بني أمية مزورٌ (م) ... وانتم في نفسي الأعداء
إن قتلي بالطف قد أوجعتني ... كان منكم لئن قتلتم شفاء[27]

تسرب الألم إلى أعماقه نتيجة تضحية السلطة الأموية بالمسلمين عامة، والحجازيين خاصة، ولا يستثني من ذلك أحداً، فذكر أحزان الزبيريين والهاشميين والأنصار واتخذ الرقيات من(كثيرة الخزرجية) محبوبته رمزاً لاشعال مأساة المسلمين التي أشعرته بالاغتراب، ولا يذكر كثيرة إلا في حالات اغترابه، وهاهو يشير الى الأنصار، ويحن إلى المدينة رمز النصرة والأمن.

شُبَّ بالعال من كثيـــرة نـــار شوقتنا وأين منا المـــــــــزار
أوقدتها بالمسك والعنبر الرطـــب (م) فتاة قـــد ضـــاق عنهـــا الأزار
تتقي بالحرير من وهج الشمس (م) وخـــزِّ العـــراق والأستـــــــار
قد تراها ولو تشاء من القـــــر ب لأعْناك عن نداها الســـــــرار
تلك نار لهـــا أضـــاء سناهـــــا لمحـــــبٍ لـــه بيثـــــرب دار
ذكرتني حلف النبـــي وقـــد تعـــ ـــــلم حلفي وحلفها الأنصـــــار
لم أخنها فتطلب الوتـــــر منـــي عند ذي الذحل تطلب الأوتـــار[28]

واستطاع الرقيات تحويل مأساة الجماعة إلى مأساة فردية، فيتناسى خسارة القادة الزبيريين لحظة، ويلح على تذكره لمأساته الفردية، فقدانه لابني أخيه اللذين قتلا في موقعة الحرة، وراحت كلماته تلامس الفقد وأسـله، لا، بل حولها إلى جنائزية، صعد فيها مستوى الألم والبكاء فقال:

إن الحوادث بالمدينـــة قـــد أوجعنني وقر عن مروتيـــــه
وجبنني جب الســـنام فلـــم يتركن ريشا في مناكبيـــــــه
وأتى كتاب من يزيد وقـــد شـــــد الحزام بسرج بغلتـــيه
ينعى بـــني عبد وإخوتهـــــم حـــــل الهلاك على اقاربيـــه
كيف الرقاد وكلمـــا هجعت عيني ألـــم خـــــيال إخوتيه
تبكي لهم أسماء معولـــــــة وتقـــول ليلـــــى: وارزيتيه
والله أبرح في مقدمـــــــــةٍ أهدي الجيوش عليَّ شكتيـــه
حتى أُفجّعهـــم بإخوتهـــــم وأسوق نسوتهم بنســـــوتيه[29]

أشار في نص آخر إلى"موقعة الحرة" وأثرها على ذاته، وكان فيه أكثر حزناً وألماً يشكو همومه الذاتية فـــاختلط الاغتراب السياسي لديه بالاغتراب الاجتماعي، ومال فيه إلى التكرار لتصعيد بكائيته وبكائية الواقع، والارتفـــاع بمستوى الألم حينما وصل إلى قوله مثوراً:

فيا ليل بكّي: أبـا عاصـم بكـاء مؤاسيه دائمـة
ويا ليل بكي: أبا مـالك ويا ليل بكي أبا فاطمـة
وبكي أسامة للنائبـات وللدين والخطة الحازمـة
وبكي حسيناً حسين الطعان إذا الخيل لم تنقلب سالمة
رجال النويعم لم ينكلـوا جلادا عن الفئة الظالمة[30]

فمال الى استعمال أسلوب التكرار، وركز في هذا الشكل من التكرار على المنادى ليلى(المرأة)، التي تفقد الأخ، وبفقدانها له تستثار الشجون، ثم الجملة(بكّي) وربط هذا التكرار بفعل البكـاء نفسـه، وفيـه تركـيز علـى الشخوص(المرثيين) وساعد هذا اللون من التكرار في تصعيد الحس الجنائزي، وحينها تشـعر بسـعة الاغـتراب وامتداداته التي تجذرت في نفس الشاعر في هذه الدولة الظالم أهلها، وهذه من أساليب الشعر السياسي في العصـر الأموي لغلبة الذاتية عليها[31].

ومن محاور الاغتراب السياسي لدى الرقيات محور العطاء وفقدانه والبحث عنه، ولا أظنه مدح الأمويين بعـد فشل الزبيرية ومقتل قوادها إلا للتذكير بالعطاء الذي استغلوه ورقة ضغط عليه، وذكر ابن قيس الأمويين بالعطـاء والكرم و لم يستجدهم في ذلك، حتى وهو يمدح مصعب بن الزبير، يتذكر الأمويين في أماكن سكناهم،ولذا تخيلهم الحلم، حلم العطاء، وحلم العودة إلى الحجاز، وحلم سعة الصدر والإشراق، إشراق الجمال بعد الاستجابة والرحمة كما في قوله:

قد أراهم وفي المواسـم إذ يغـ دون حِلمٌ ونائلٌ وبهـاءُ[32]

وحين أتى على ذكر شخوص قرشية، حاول تذكر الشخصيات المعروفة بالكرم والعطـاء وفي هـذا تثوير للأمويين ليكونوا مثل تلك الشخصيات المفقودة التي أحسنت إلى أبنائها فاشار إلى سهيل بن عمرو وعبد الله بـن جدعان، وأطنب في الحديث عن صفة الكرم:

منهم ذو الندى سهيل بن عمرو عصمة الجار حين حبّ الوفـاء
والذي إن أشار نحوك لطمـا تبـع اللطـم نائـل وعطـاء
والبحـور التي تُعدُّ إذا النـا س لهـم جاهليـة عميـاء
يطعمون السديف من قحد الشو ل من آوت إليهـم البطحـاء
فـي جفـانٍ كأنهـن جـوابٍ مترعات كمـا تفيض النهـاء
وهم المحتبـون في حـلل اليمـ ـنة فيهـم سماحة وبهـاء
أقسمـوا لا نزال نطعم ما هبـ ـّت رياح الشمال والأصباء[33]

فقدانه للمال والعطاء جعله يكثر من ذكر الكرم والكرماء، ولعله كان السبب الذي جعله يكاد ينقطع إلى عبد العزيز بن مروان إذ قال ما يشعر بحاجته إلى المال:

المانعو الجار أن يضام فما ... جار دعا فيهم بمهتضم
والوارثو منبر الخلافة والـ ... ـموفون عند العهود بالذمم
والجابرو كسر من أرادوا وما الـ ... ـكسر الذي أوهنوا بملتئم
فهم إذا جللت مدجية ... نجومُ ليلٍ تنير في الظلم
الكاشفو غمرةً إذا نزلت ... بالناس إحدى الجوائح العظم
ليسوا يمنون فضلهم ولهم ... فضل علينا بأحسن النعم
خليفة يقتدي بسنته ... في إرث مجد الثراء والكرم[34]

صورة العطاء بادية الملامح في النص، وان لم يطلبها مباشرة، فقد أشار إلى صورة الكرم والثراء والغناء، وأنهم كاشفو الغمرات والهموم، وهذا تخبط قادة إلى الاغتراب السياسي، يتنازل عن انتماءاته السياسية رغبة منه في الحصول على الحياة، أو ما يعوضها بالعطاء ليقول فيما بعد:

الواهب البيض كالظباء عليـ ... ـها والريط والشاحياتَ في اللجم
والمائة المصطفاة يحفزها الـ ... ـراعي وبالفحل وسطها السدم
أمسى عيالا له البرية في ... أكناف لا ضيّقٍ ولا برم
نفسي فداء له وما عظمت ... من فاجعات الحتوف والسقم
من ذا الذي بعده يعز به ... ضامن حاجاتنا ومن عدم
في شدة العيش والزمان وما ... يأتي به دهرنا من القحم[35]

فعلاقته بابن مروان قائمة على سد الأود، وإذا عطف عليه ابن مروان فإنه يرد إليه الجميل نتيجة الأسى الذي لحقه من أخيه عبد الملك لما فكر الأخير في تولية إبنه الوليد بن عبد الملك ولي عهد لعبد العزيز فيما بعد، استغل الرقيات هذا الأمر وأقحم نفسه في هذه القضية وكأنه أراد أن يرتجع قوته السياسية حين قال:

يخلفك البيض من بنيك كما ... يخلف عود النضار في شعبه
ليسوا من الخروع والضعيف ولا ... أشباه عيدانه ولا غربه[36]

فنجده يبيع نفسه لعبد العزيز من أجل البقاء، وهذا هو الاغتراب الإيجابي كما عبر عنه روسو[37]، وترى أمل نصير إن مديحه له جاء أكثر صدقاً من مديحه لعبد الملك، هي حالة من حالات التوفيق بين الذات والموضوع[38].

ونلمح الاغتراب السياسي لديه في نصوص غزلية يخاطب فيهه رقية، ويميل فيها إلى التكنية والترميز من غضب السلطة، ولذا تشكل النص في مستويين: مستوى الغزل، المستوى المباشر، والمستوى العميق، مستوى الاغتراب السياسي، إذ يقول:

أتكنى عن رقية أم تبوح ومن تبع الهوى حينا فضوح
أعوذ بجحزتيك رقيّ إما نوال منك أو قتل مريح[39]

قمة المعاناة أن يصل الشاعر إلى التخيير، تخيير الحبيب(الخصم) النوال أو القتل، فبالقتل راحته فيكمل:

وقالوا دع رقية واجتنبها وتركيها إذا خرج المسيح
فديتك فيم اهجر لا بذنب وفيم وودكم عندي ربيح
كأني ناقة من غبّ وعكٍ فامثل ما بي النظر الصحيح[40]

يلح على رقية بان تستدعيه إليها وتضمه، فما هو إلا ابن قيس الرقيات الرجل العاشق صاحب البصر الصحيح، ويحفظ وداً لها، فما عليها إلا أن تستجيب، فرقية في نصوصه تمثل الأمويين الذين رحلوا بقلوبهم وعاصمتهم وانتماءاتهم من قريش، فها هو يحاول استجداء محبتهم، استجداء الرضا[41]، استجداء العودة وهي حالة من حالات الاغتراب السياسي، وليس صحيحا ما قيل عنه: إنه لقب بالرقيات: "لانه شبب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية، منهن رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد.. بن عامر بن لؤي، وابنة عم لها يقال لها رقية وامرأة من بني أمية يقال لها رقية"[42]، وكأن أبا الفرج في هذه الرواية التي يشير فيها إلى أن ابن قيس أحب امرأة من بني أمية اسمها رقية كان قد لمح رمز الأموية ومحاولة الوصول إليهم، ولذا فهي أي رقية غير معروفة، وان أنعمت النظر في دلالة رقية اللغوية:"رقية: التعويذة، ورقى عليه كلاماً ترقية رفع، والرقية بالضم العوذة، وجمعها رُقى ورقاه رقياً ورقياً ورُقية، فهو رقّاء نفث في عوذته، وعبد الله بن قيس الرقيات لعدة زوجات أو جدات أو حبات له أسماؤهن رقية"[43]. فدلالة رقية مبهمة بين الزوجة والجدة والحبيبة، مما يجعلنا نزعم بالبعد الدلالي لرقية.

عاش ابن قيس آلام الفجيعة الإنسانية لما أحدثته السلطة في نفوس القرشيين ولذا صرخ قائلاً:

فجعت بالثغر من أمية حرا شا واحداً نجتلي به الظّلما
أعني ابن ليلى عبد العزيز ببا بليون تغدو أجفانه ردما[44]

ب–الاغتراب الاجتماعي:

يدور الاغتراب الاجتماعي في محورين:

1. غربة الأقرباء (القرشية)
2. غربة الحب(فقدان المرأة)

1- غربة الأقرباء:

عانى ابن قيس غربة الأقرباء، ومن البدهي في هذا المقام أن يظهر هذا الاغتراب ويتقاطع مع الغربة السياسية لقرشية الشاعر، وقرشية الخلافة، وقرشية عبد الله بن الزبير الثائر السياسي. فابن قيس الذي يؤمن بقانون القرشية حسب مبادئ الزبيرية، لا بد أن يكون للقربى أهمية كبيرة في حياته، فانتمى إلى الزبيرية لأنهم يدافعون عن قانون القرشية، ويكرهون التشرذم ولذا كان ضد بني أمية، الذين حاولوا الاستئثار بالحكم دون قريش؛ من هذا المنطلق كان مقاتلاً وإعلامياً في صفوف ابن الزبير الذي يطيح برؤوس الذين يتطلعون إلى الخلافة على غير وجه واستحقاق، في تلك المرحلة كان يبرز مصعب أو عبد الله على أنه الشخصية المميزة في ساحة الشرف العربي بل فالقرشي.

وفي المرحلة الثانية ينعى على الأمويين مواقفهم من العرب عامة والقرشيين خاصة ويبدأ في ذكر مواقفهم المؤلمة التي تركت جرحا في النفس لا يبرأ لنستشعر مرحلة الاغتراب الاجتماعي إلى جانب الاغتراب السياسي فيصرخ:

أنا عنكم بني أمية مزورٌ وأنتم في نفس الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتني كان منكم لئن قتلتم شفاء[45]

آلمته الأحداث التي ألمت ببني هاشم، ولذا ناصبهم أي الأمويين العداء وآلى على نفسه أن يكونوا أعداءه من يوم راهط كما قال فيهم من قبل: "رجال هم الاقتال من يوم راهط"[46]، وتتعالى صيحات الاغتراب عن مجتمعه، ولذا يطلب من صحبه:

قفوا بي أنظر نحو قومي نظرةً فلم يقف الحادي بها وتغشمرا
فواحزنا إذ فارقونا وجاوزوا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا
بلاداً تغول الناس لم يولدوا بها وقد غنيت منهم معانا ومحضرا[47]

الاغتراب جعله يتذكر قومه المفارقين، لقد ازدحم نصه بالغربة والاغتراب فقومه هم المفارقون، وهو الشاري لا البائع دائماً، مما يشعرك بعمق حس الاغتراب لديه، ولذا يميل إلى الأيام الصالحة التي يشعر فيها بوجوده وحضور قومه في نفسه وأعماقه إذ يقول في النص نفسه:

ليالي قومي صالح ذات بينهم يسوسون أحلاما وإرثا مؤزّرا
فلله عينا منْ رأى من مفارق يفارق طوعا أو غريبا مسيرا
شبيها بذاك الحي حين تحملوا يلفون أسقاطا وسبيا موفرا
وسوق عدول اعجلوا عن مناهم رجالا ونسوانا يزجّين حسرا[48]

فالمفارق طوعاً والمُغَّرب قسراً لديه سواءً، فإن حدثته نفسه باختيار الغربة وعيش الاغتراب فلا يختلف الأمر بتاتاً عمن يجبره أن يحيا الغربة والاغتراب. فراق بني أمية إلى الشام مكاناً وتضحيتهم بالقرشيين دماً أقضا مضجعه، ورفعا ضغط الاغتراب لديه فها هو يندب وحدة قريش:

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرّق أمورها الأهواء[49]

ومما يحسب لابن قيس انه إذا بنى نص الغربة والاغتراب وكان محوره الأقرباء جعل مقدمته تنضح بالاغتراب، وترتفع صيحات الشكوى فها هو يقول:

بان الحي فاغتربوا وشفّ فؤادك الطرب
وذكرك المنازل من رقيةَ مترل خرب
به آريٌّ أفراسٍ وخيمات ومنتصب
غنوا جيراننا فنأت بهم قذّافة صبب[50]

ليدخل في موضوع القصيدة الرئيس وهو الاغتراب الاجتماعي:

وفرق بين أهلينا قديم الذحل والغضب
وقد علمت قريش أنـ ـنا فرعٌ إذا انتسبوا
مراجح في صفوفهم وفرسان إذا ركبوا
وأحوالي بنو ليثٍ وضنء نسائهم نجب
هم منعوا تهامة حيـ ـث تحمي بعضها العرب
زمان نفى العزيز بها الذليل أمعن الهرب[51]

أنه لأمر سيء الإحساس بالتفريق بين غصون القبيلة الواحدة، ولذا راح يفتخر بقومه الأدنين وأخواله، ليس ليستشعر الفخر والهيبة والوجود، وليوجه اللوم إلى بني أمية التي تخلت عن أهلها وقبائلها وجعلتها مفردة لا قيمة لها بل تتنقصها.

ويشكل الاغتراب لديه حالة من العجز والاستسلام والاكتفاء بالشكوى دون تجاوز ذلك إلى الثورة على الواقع كما كان في بداية عهده، ولذا اصبح غير قادر على حماية النساء، أما وقد علاه الشيب وهزئت به النساء فإنه سيتركها لمن يحميها، وشكل هذا عجزاً ما بعد عجز، بل واغترابا ما بعده اغتراب ليخاطب المرأة:

فاظعني فالحقي بقومك إني ... لا أرى أن أقيم فيكم غريبا
فانزلي في بني كنانة تلقي ... فيهم العز إن دعوت قريبا
حيث ان خر سيف مولاك لم تخـ ... ـشي من الناس من تحنى الذنوبا[52]

فيرى ان حماية المرأة لا تكون في الرقة، التي شهد فيها الشاعر أقسى ألوان الاغتراب والنكاية على أيدي القيسية رغم زبيريته، ولذا ارتحل إلى الكنانيين يحتمي فيهم، وفي هذا النص يندم على ما فاته من رفاهية واستقرار، ويشكو تقلب الدهر، وفرقة الناس وسوء الواقع الاجتماعي الذي يعاني منه القرشيون:

فأرى الدهر قد تغير بالنا ... س وقد كانت الشعوب شعوبا[53]

وعلى ذلك تمتلئ نفسه ألماً وحسرة لاضطراره إلى مفارقة أهله في الرقة، لأنه أصبح غير قادر على حمايتهم ليشكو في مقطوعة أخرى ويحن إلى دياره وما يغيظه هو التنقل، ولذا يستغل طاقة غربة الحب لدعم الغربة الاجتماعية:

إن عهدي بهم غداة استقلوا ... من فلسطين والدموع غزار
واستحازت على القناطر من حو ... ران عينٌ نواعمٌ إبكار
غير أني سمعت حين انصرفنا ... قولهم: شط بالحبيب المزار[54]

جعل غربته على لسان النساء وقد خرجن مودعات.

وسع الرقيات دائرة انتمائه الأسري ليجعلها في نزار فيرفضها، والرفض شكل من أشكال الغربة التي جرت عليه اغتراباً أبدياً ليصرخ قائلاً:

أتقعد في تكريت لا في عشيرة ... شهود ولا السلطان منك قريب
وقد جعلت أبناؤنا ترتمي بها ... بقتل نزار والحروب حروب
وأنت امرؤ للحزم عندك منزل ... وللدين والإسلام منك نصيب
فدع منزلا أصبحت فيه، فإنه ... به جيف أودت بهن حروب[55]

لم يستطع ابن قيس الارتفاع بالاغتراب الاجتماعي إلى المستوى الإسلامي او الإنساني واكتفى بلامستها من منطق النسب، فعلى الرغم من إفصاحه بعداء الأموية إلا أنه لم يتخذ موقفا يتجاوز الشكوى مما يدل على العجز، وهو اغتراب سلبي مدمر، وقد تكون قرشيته هي التي أشعرته بالاغتراب بعد نجاح السلطة الأموية وأنهم قد ضحوا به، وجعلوه حديث الناس ومعتركهم ولذا صرخ قائلاً:

تمنعني و ادّكار نصر بني عمي إذ حل جاري الرَهَق
يا سلم نأي الديار عن بلد الـ ـوالد ذل ورحبها ضَيِّق
لو كانوا حولي بنو أمية لم ينطق رجال أراهمُ نطقوا[56]

فالشاعر مكتئب وقلق للوضع الذي آلت إليه الأمة، والقلق حالة من حالات الاغتراب، إذ استنسر بغاث الطير، وغالبا ما يضع اليوم على بني امية، و لم يلم نفسه أو الزبيريين أو العلويين الذين انفصلوا عن بني أمية.

وشكا ابن قيس غربته وسط حروب القيسية والتغلبية وكأني به يعرض ببني أمية التي أشعلت نار الفتنة و لم تخمدها، فعانى العرب ما عانى من ألم وضيق وضنك معيشة في الجزيرة الفراتية و لم تنجه من الغربة الأبدية أي (الموت) إلا قرشيته، واحترام قيس لابن الزبير، وخوف تغلب من الخليفة كذلك، إنه يلوح بهذا النسب الذي صار عبئا على المسلمين جميعا بل وعلى قريش أيضا، إنه لأمر يوحي بالاغتراب الذي يحمل في ثناياه الانتقاد لأقربائه.

ويطفح شعره بشكوى الغربة بأنواعها، غربة القريب وغربة الصديق الغربتين اللتين قادتاه معا إلى غربة الزمان في قوله:

بدّلتُ بعد بني ربيـ ـعة والزمان معاقب
جيران سوء بينهم شطر الزمان عقارب
يستأسدون على الصديـ (م) ـقِ، وللعدو ثعالب
وكذلك الأبدال منـ ـها نازح ومقارب
والدهر فيه لمن تفكـ ـّر عبرة وعجائب
إن يستطيعوا يأكلو (ك) وهم لديك اقارب[57]

إنه ظلم ذوي القربى الذي شكاه طرفة بن العبد قبله حين قال:

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند[58]

ثم اغترب في قومه، أما ابن قيس فاغترب فشكا، فطلب الإصلاح فظل يحمل عصا الترحال من مكان إلى آخر يجتر الآمه وأحزانه لا سيما بعد فجيعته الأسرية با بني أخيه، فلا يستحي من أن يعلن حزنه الدائم على اليتامى والأرملة ونفسه من قبل، وقد اشتد الدهر عليه ويبدو أن الفجيعة الأسرية كانت طامة الاغتراب وطريق سكوت الرقيات عن قول الشعر في تحدي السلطة ثم ميله إلى استرضائها فيما بعد فكانت مصيبته بأبناء أخيه أكبر من مصيبته السياسية بمصعب او بعبد الله ابني الزبير، فشكت النساء شيبه وهمومه، وقد مضى الحديث عن ذلك في باب الاغتراب السياسي الذي جعله يشعر بفشله السياسي بل ويصر على مواقفه. وعلى ذلك تعلو الذات سافرة عن نفسها لتعلن الهلاك على أقاربيه فذكر صاعقة الخبر على نفسه، وعلى النساء:

إن الحوادث بالمدينة قد ... أوجعنني وقرعن مروتيه
وجبيني حبّ السنام فلم ... يتركن ريشاً في مناكبيه
وأتى كتاب من يزيد وقد ... شد الحزام بسرج بغلتيه
ينعى بني عبد وأخوتهم ... حل الهلاك على أقاربيه[59]

ثم يبدأ بذكرهم، وذكر الرزية، ولذا شعر بالغيظ والحزن ولا بد من اتخاذ القرار الإيجابي لمقاتلة الأمويين، ولكن الأمر ظل لا يتجاوز حدود البكاء والتهديد بالانتقام ليبكيهم في نص آخر، ويبث فيه غربته وحزنه إلى كثيرة، تلك التي عاشت غربته ومعاناته.. اغترب ليبدأ تفاصيل الفقد والحرمان والمعاناة والعجز وهذه كلها حالات اغتراب:

رأت رجلا شاحبا لونه ... أخا سفر انزع القادمة
تخونه الدهر إخوانه ... كثيرة قد كنتِ بي عالمة[60]

وكأنه يشكو إلى كثيرة بأنه قد عاد لغربته، وأخذ أقاربه ما يملك، وما يعيش لأجله، وكأني به يخبرها بأن تستقبل اغترابه وتعيشه أكثر، المرأة الوحيدة التي استقبلته أيام غربته السياسية لتستقبله ثانية في رحلة الاغتراب الثانية ليكمل في النص نفسه:

ومصرع أخواني الصالحين ... بالنعف والأعين الساجمة
يتامى يبكّون آباءهم ... دهرٌ و لم يبق دهر لهم سائمة
وأرملة يعتريها النحيب ... إذا نامت الأعين الناعمة
تبكّي رجال بني عمها ... واخوتها وحدها قائمة...الخ

أتى على تفاصيل آلامه وحزنه وقلقه واكتئابه، وذكر كل أقربائه المفقودين الذين لم يعد لهم وجود ويسميهم بالصالحين، ويذكر الباكين معه انهم يتامى وأرملة وأخت، ويستغل طاقة الأخت لتوسيع البكاء، ودائرة الحزن،

ليدعوها للبكاء ويرتفع ألمه ليثور في نهاية النص لهاية سلبية مشيراً الى الفئة الباغية حسب التعبير القرآني ويقصد بهم بني أمية حين يعتمد على عشيرته للأخذ بثأر أهله:

رجـــال النويعم لم ينكلـــوا جـــلاداً عن الفئة الظالمـــة[61]

أكثر من حديثه عن فقدان الأقارب أليس: "فقدان الأحبة غربة"[62]، كما أشار إلى ذلك الأمام علي بـــن أبي طالب.

أما غير ذلك فلم نجد للصداقة عنده مكاناً، وربما كان لاغترابه سبب بين في فقدان الأصدقاء. انعدام الأمـــن وانتشار الخوف كان لهما سبب غير مباشر في فقدان الأصدقاء، ولذا كانت المرأة صديقته وقدم ابن قيس صـــورة طيبة للرجل الذي يعفو عن قومه ويتحمل أذاهم وتمثل هذه الصورة مبدأه السياسي والاجتماعي حين قال:

وقومك لا تجهل عليهم ولا تكن بهم هرشاً تغتا بهـــم وتقاتـــل
فان امرءاً في معشر غير قومـــه ضعيف الكلام شخصـــه متضائل
إذا شاء لم يبسط لساناً ولا يداً و لم تنب عن ذي صفحتيك المعابل[63]

إنها متطلبات في الرجل الصدوق الوفي.

غربة الحب:

ومن جميل الأمور أن ابن قيس عرف بأنه شاعر غزل وبعد إمعان النظر في نصوصه الغزلية نجده لم يهنأ بـــالغزل وحالاته، فكان فيه غريباً مغترباً فكرهته المرأة لشيبه:

بكرت علي عواذلـــــــي يلحيننـــي وألو مهنّـــــه
ويقلن: شيب قـــد عـــــلا ك ما قد كبرت فقلت: إنه[64]

وركز على مفرده الشيب في غربة الحب، وجعلها عصارة ألمه وفشله الذريع في الحياة والحب ولذا يبرر هـــزء محبوبته به ويبرر لها سبب ألمه:

هزئت إن رأت بي الشيب عرسي لا تلومي ذؤابتي ان تشيبـــا
إن يشب مفرقي فـــإن قريشـــا جعلت بينها الحروب حروبـــا
فاظعني فالحقـــي بقومـــك انـــي لا أرى ان أقيم فيكـــم غريبا[65]

فارتبط الشيب الذي كان مثار هزء المرأة بالسياسة مما يجعلنا نرى الصلة الوثيقة بين غربة الحب فنّـاً وغربـة السياسة واقعاً. ويوازي الشيب في الألم قوة وأثراً أثر كثيرة في النفس، واذ اوصلته حد الموت، وبينت لـه طريـق الصواب في الوقت نفسه فامتلك مقومات النظر الصحيح بحسن اختياره لها:

لججت بحبك اهـتل العراق ولـولا كثيـرة لـم تلجـج
فليت كثيرة لـم ألقهـا كثيرة أخت بني الخـزرج
وما كلمتنا ولكنهـا جلت فلقـة القمـر الأبلـج
تخاف كثيرة من حولهـا وتقتل بالنظـر الأدعـج
فكدت اموت وقد حمّلـت خطيئته ربـة الدملـج[66]

في اختيار السبيل الصحيح واجه صعوبات جمة منها الشعور بالغربة والاغتراب ولذا يحمل صاحبته خطيئة الالم والفشل والنهايات المأسوية.

وإذا كانت محبوبته قد كرهته لشيبه كما قال فطالما احبت منه خصائل وقيم قل ما يملكها رجل كما يقـول في النص التالي:

إلا هزئت بنـا قرشيـ ـّة يهتز موكبهـا
رأت بي شيـبة في الـرأ س مني مـا أغيّبهـا
فقالـت: ابـن قيس ذا؟ وغير الشيب يعجبهـا
رأتـني قد مضـى مـني وغّضات صواحبهـا[67]

فالشيب كان حالة من حالات القهر والألم الذي أسند إليه فشل حبهما، بسببه رفضته المـرأة ولكنـها قـد أعجبت برجل حمل كهولة الانتماء والفكر السليم لحظات فشل الأمة(وغير الشيب يعجبها) نص ينضح بـالألم والهزيمة حين أبرزه بطريقة الحوار الممزوج بالهزء ولذا يتعالى على الألم وهزء الحبيبة حين يذكر لها بأنه قدلها بـامرأة تساويها جمالاً وكمالاً وبهاءً وحسن نسب فيرد عليها:

ومثلك قد لهـوت بهـا تمـام الحسـن أعيبهـا

فهو لا يقصد (مثلك) أي شبيهك إنما يقصدها هي ويذكرنا بأسلوب بلقيس لسليمان عليه السلام حين سألها عن عرشها، وهي تعلم ان العرش عرشها في قوله تعالى: ((قال: نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين))[68]. فتحايلت بالرد عليه. وبعد أن أسهب في الوصف صحا على الألم فلم يحصل عليها إنما كان حبه وهما، حلما وبالتالي جعلها أي المرأة لونا من ألوان تحدي السلطة لا سيما غزله بأم البنين والذي عرف فيما بعد بالغزل السياسي.

وربط اغتراب الحب بحالاته السياسية وهمومه، و لم يتوقف فيها عند الغزل كثيرا، وكان جل تفكيره بالقبيلة مما يوحي بأنه جعل اغتراب الحب معادلاً موضوعياً:

بان الحي فاغتربوا وشف فؤادك الطرب
وذكرك المنازل من رقية مترل خرب
وفرق بين أهلينا قدم الذحل والغضب[69]

وفي حالات أخرى اقترن اغتراب الحب بالاغتراب المكاني ففارقتة المرأة راغبة وظل يلاحيها في فكرة الاغتراب كما برز في قصائده التي جعل رقية موضوعها:

زودتنا رقية الأحزانا يوم جازت حمولها سكرانا
رائحات عشية من قديد واردات مع الضحى عسفانا[70]

وظل يبرز رقية بصورة الحبيبة المهاجرة، وقد اختارت مكاناً جديداً غير مكان حبها واستبدلت بقومها قوما آخرين:

شطت رقية عن بلا دك فالعوى متشاعب
وعدت نوى عنها شطو ن في البلاد وجانب
واستبدلت بي خلّتي إن النساء خوالب[71]

هي استبدلت وكذلك هو استبدل بها الألم وجيران سوء فأكمل:

بدلت بعد بني ربيـ ـعة والزمان معاقب
جيران سوء بينهم شطر الزمان عقارب
يستأسدون على الصديـ ـق وللعدو ثعالب
وكذلك الأبدال منـ ـها نازح ومقارب[72]

واستطاعت قصيدة الغزل لديه أن تحمل اغتراباً فردياً عاناه الشاعر واغتراباً جماعياً عاناه المسلمون كثيراً عامة، وعانته قريش خاصة ولذا تمنى الحج إلى ديار تعيش فيها الثريا:

حبذا الحج والثريـــا ومن بالـ	ـــخيف من أجلها وملقى الرحال
درة من عقائل البحـــر بكـــر	لـــم تنلهـــا مثاقـــب الـــلآل
قطنت مكة الحـــرام فشطـــت	وعدتنـــي نوائـــب الأشغـــال
فظلال السيوف شيبن راســـي	وطعاني في الحرب صهب الســبال
واغترابي عـــن عامـــر بن لـــؤي	ببـــــلاد كثيـــرة الاقتـــال
كل يوم ألقـــى ابن شانئـــة ليـــ	ـــس عن الشرما استطاع بـــآلي
حوله قومـــه وقومـــي بـــأرض	حرم دونهم حنيـــــن الشمـــال
وملوك فارقتهـــم أفردونـــــي	وصروف الايام بي والليـــالي[73]

ومما يشي بغربة الحب أنه جعل قصيدة الغزل معادلاً موضوعياً لحالات الاغتراب الأخرى التي عاناهـــا منـــها المعاناة السياسية وقد اقفرت الديار من بني أمية.

ج- الاغتراب المكاني:

يمثل المكان فضاء الشاعر العام والخاص فيملأ فضاءه بأحاسيسه ووجدانه ومشاعره حسبما يراه دون إملاء أو شروط، فارتبط العربي بالمكان كثيراً فراقب تحوله وثباته كثبانه وسهله ورمله، عرف قحولتـــه وجدبـــه، خصبـــه وامتلاءه، عرفوا المكان الذي آواهم ورد إليهم كرامتهم فتبطنوا الأمكنة وامتدوا فيها نسغاً فاعلاً لا ينتهي تغنـــوا بالمكان الجديد الذي قدم لهم كل طيب ولذيذ، مادي ومعنوي فلا غرو أن يبرز لدى شاعرنا وقد عاش في عصـــر الفتوحات والفاتحين المهاجرين، تشوقوا للمكان المفقود المكان الغائب الذي يكاد يشكل هويتهم الأولى وجذرهم، أهواءهم ورغباتهم، وما قصيدة مالك بن الريب بغائبة الذهن عن بال الدارس للأدب الاموي وملاحظة قيمة المكان عنده الذي أبرز فيه ماضيه وحاضره، الزمان الذي شطر شطرين، والمكان الذي شطر شطرين آخرين، وكـــانت مشاعر الشاعر تتردد بين الزمانين والمكانين، وبالتالي فالثقافتين: الحضرية وما قبلها[74].

وكان ابن قيس أحد الذين مارس المكان سلطته عليه وانداح فيه، وحاول الانفلات من قبضته ولكن محاولاتـــه باءت بالفشل، فتسلل العجز والفقد حيناً إلى النص، والرفض والقهر حيناً آخر، والشعور بالغربة المحددة، بجـــهاتها الأربع وكانت كلها إيحاءات للاغتراب ومن أبرز الأمكنة:

- الحجاز وبالأخص المدينة المنورة.
- العراق.
- الشام والجزيرة الفراتية.

وردت هذه الأمكنة في مطالع نصوصه أحياناً، وفي ثناياها أحياناً آخر، ويكاد يخصص لكل مكان فتاته، فارتبطت رقية بالمدينة المنورة غالباً، وأم البنين وعاتكة الأمويتان بالشام التي رحل إليها الأمويون وانقطعوا عن قريش، وارتبطت كثيرة الخزرجية المهاجرة قسراً بالعراق تلك التي حملها اغترابه الأبدي وكآبته وفشله وقلقه كحالة العراق القلقة إبان ثورات الخوارج، ومقتل الحسين بن علي وترددهم عن قبول ابن الزبير، المدينة المنورة عاصمة الخلافة الإسلامية والوحدة القرشية والإسلامية كذلك، وبلد الشاعر، تلك المدينة التي أصبحت ذاكرة في عمق الشاعر بعد انتقال العاصمة إلى دمشق وقد بدأت الأخيرة تهدد حضارة المدينة فثارت نفسه شعاعا فقال:

قد تولّى الحي فانطلقا ... واستطارت نفسه شققا
من لعين تمنح الأرقا ... ولهم حادثٍ طرقا
غادروا لا درّ درهم ... حين راحوا جؤذرا خرقا
أسلموها في دمشق كما ... أسلمت وحشية وهقا
لم تدع أم البنين له ... معه من عقله رمقا[75]

نص ينضح بالغربة والاغتراب، خلا المكان من وجود الأحبة، وسلمت الحبيبة في دمشق، دمشق ذلك المكان الغول الذي اختطف الحب والأمن والعدل والوحدة والسكينة ولذا ذكر المكان والرحلة عن المكان، وختم النص باسم المحبوبة إنها ام البنين بنت عبد العزيز بن مروان الأموية التي غادرت مع قومه من بني امية، فطارت نفس الشاعر لرحلتهم تماماً، فكره المكان الذي اختارته أم البنين وبكاها بحرقة لا تنتهي ودمعة متطاولة كليله القاسي الأليم المظلم، ويربط إقفار الامكنة بإقفارها من بني امية، وتلك الأمكنة الدينية المهمة التي يحتاج إلى قومها، ونسب إليها الوحشة والأذى مع أنه نص زبيري:

أقفرت بعد عبد شمس كداء ... فكدي فالركن فالبطحاء
فمنى بالجمار من عبد شمس ... مقفرات فبلدح فحراء
فالخيام التي بسعفان فالجحـ ... ـفة منهم فالقاع فالأبواء
موحشات إلى تعاهن فالسقـ ... ـيا قفار من بني عبد شمس خلاء[76]

رصد عدداً كبيراً من الأمكنة الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة تلك الأمكنة التي شغلتها بنو امية يوماً ودافعت عنها قبل رحيلها إلى دمشق وكأني به يستوحش الأمكنة دون أهلها. وظل مرتبطا بذاكرة المكان الذي يوحي بالوحدة القرشية وبقاء الأمويين مع حلف قريش ليقول في مفتاح النص: "حبذا العيش حين قومي جميع"، لتصبح "حبذا" مفتاحاً لشعر الرقيات، ذلك الأسلوب الذي فشافي شعره أسلوب يحمل المدح والإعجاب والألم معا ليعمقها في بكائية

يا حبذا يثرب ولذتهـــا من قبل أن يهلكوا ويحتربـــوا[77]
وحبذا الحج والثريـــــا ...الـــخ[78]

وإن أشار إلى وحشة الأمكنة لخلوها من أهلها فإنه يتشوق في نص آخر إلى "جبل أُحد" ذاك الجبل الغـارق في عمق المسلمين مهاجرين وأنصار، المكان الذي عرم إليه الناس يوماً في غزوة أحد هاهو يـــرى الجبـــل يتوحـــد، ويتوحش والرجال الذين يمثلون السلطة كانوا قد حموا الجبل سابقاً، وقاموا بغزوة ضد أعدائهم ذلك الجبل الـــذي أحبه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الجبل الموحد لله المتوحد الذي يحتاج إلى السلطة يثير ذاكرة المكان الديني ويحزن للجبل الذي يعلن الوحدة ويعانيها الآن ولذا يخاطبه أليس مثله:

يـــا سنـــــد الظاعنين من أحُدٍ حييت من مـــزلٍ ومن سنـــد
ما إن بمثـــواك غيـــــر راكدة سفعٍ وهابٍ كالفرخ ملتبـــــد
والنؤي كالحوض خط دون عوا دي السيل ومضـــرب الوتـــدِ
والوحـــش فيـــه كأنهـــا هـــل ترعى بجـــوا عوازب العَقِـــد
أبدلت عفر الظباء والبقـــر الـــــ ـــعين خلاف العقائل الخرد[79]

تعالى إحساسه بالأمكنة ويحاورها حواراً إنسانياً يكشف فيه الشاعر عن عتمة نفسه ويضيئها فتظهر تجربته مـع المكان:

أســـاخط أنت أم رضيت بما اســـ ـــتبدلت بالحي بعدهم فقد
بدلت غير الرضـــــى وشط بهم عنك صروف المنون والأبد[80]

ليدخل بعد ذلك في محاورة مع رقية، علامة اغترابه الاسري القرشي الذي ظل وفيا لها، فتصر على الرحيـل في كل نص. وظل حس التشوق إلى المدينة المنورة يلاحقه في العراق حتى وهو في حماية كثيرة يتذكر المدينة ولا سيما أن كثيرة إبنة المدينة المنورة المفارقة الحجاز كله، ويشير في النص إلى قوة المسلمين، وأنفـــة الانصـــار، ووحـــدة المهاجرين والأنصار اذ يقول:

تلك نار لها اضـــاء سنـــاها لمحـــب لـــه بيثـــرب دار
ذكرتني حلف النبي وقد تعـــ ـــلم حلفي وحلفها الأنصار[81]

فالمدينة إرث المسلمين جميعاً، وكثيرة تشكل فتيلة إحساسه بالمدينة، كثيرة التي تشعره بالأمن في بيتـــــها، وفي الوقت ذاته عمقت إحساسه بالغربة المكانية لكليهما، وأبرزت تفسخ عرى القرشية والالتئام الإسلامي الذي مـــن المفترض أن يكون، ومن هنا ألح على يثرب، الأمن المفقود والسلام المنشود اذ قال:

يا حبذا يـــثرب ولـــــــذتها من قبل ان يهلكوا ويحتربـــوا
وقبل أن يخـــرج الذين لهـــم فيها السناء العظيم والحسب
بغت عليهم بهـــا عشيرتهـــم فعوجلوا بالجزاء واطّلبـــــوا[82]

ما ألذ يثرب أيام الأمن والدعة والسكينة والوحدة! وكأنه يبكي المكان(يثرب) بكل ذكرياته ليخلص منـها أي الذكريات إلى حالة جديدة يحاول التكيف معها وعلى ذلك تشعرك بالاكتئاب والعجز والفشـــــل، إنهـــا حالـــة المصانعة، مصانعة بني امية، ولا نرى مسوغاً لعبد الملك برفض ما جاء من مدح له في البيت المشـــــهور في نـــص مدحي: إلا إذا كان قد استشعر أحزان ابن قيس على الماضي وتعمق اغترابه ويقول البيت:

يعتـــدل التاج فوق مفرقـــه على جبين كأنـــه الذهـــب[83]

ووصف الخليفة بهذه الصورة لا يعني ألبتة انه تجذر في المكان الذي ينتمي إليه الخليفة، فعلى العكس من ذلـــك أنه يعكس طريق انبتاته عن المكان، والشاعر في الأصل يحن للمكان المرفوض عند الخليفة وهذا يعني رفض الشـــاعر لمكان الخليفة الجديد وان لم يصرح بذلك، فمقدمة النص تشير إلى غربته في العراق والأذى الذي لحقه من بني امية، وفيه إشارة إلى المرأة التي حمته وشكا اليها بتحنن، وكأني به يرى أنه عندما كان في العراق بكل غربته إبان مقتـــل ابن الزبير أقل حدة من حالته الآن بقرب السلطة وها هو يسفح الدموع على كثيرة وما كثيرة في بعض دلالتـها إلا سلطة ابن الزبير التي كانت سببا من أسباب غربته وعنائه واغترابه، أي لانتمائه إلى سلطة ابن الزبير ورفض ســـلطة الخليفة، ويشير إلى الشيب الذي ألم برأسه، وأوصله حالة العجز؛ والعجز كان سبباً من أسباب توجهه إلى الخليفـــة، ولذا قال فيه ما قال فاستشعر عبد الملك بذوقه الناقد ما قصد ولذا لم يرغب بالإشارة إلى اغترابه فاعتراف الخليفـــة باغتراب الشاعر يعني عدم رغبة الأخير باسترضاء الأول ولذا مال إلى المراوغة للتفكير بما هو أبعد(قانون الملـــــك)

كيف تراه الامة؟ وكيف يراه الخليفة؟ وكيف يراه الشاعر ابن قيس؟ وأما ما يؤيد زعمنا فإننا لواجدوه يتحنن إلى الحجاز في نص يمدح به عبد العزيز بن مروان:

يا من يرى البرق بالحجاز كما ... اقبس أيدي الولائد الضرما
لاح سناه من نخل يثرب فالـ ... ـحرة حتى أضا لنا إضما
اسقى به الله بطن طيبة فالـ ... ـروحاء فالأخشبين فالحرما
أرض بها تنبت العشيرة قد ... عشنا وكنا من أهلها علما[84]

وكأنه يستغيث بعبد العزيز بن مروان للعناية بالمكان الحجازي، ولذا يدعو له بالسقيا لكل البلاد التي فجع بها بنو امية تلك البلاد التي(تَنْبتْ) بها العشيرة و(تُنبت) تذكرنا(بتنبَّتْ) أي انقطعت علائق الوصال والقرب، وليس ما هو مقروء على الظاهر، بل على ما قصد ابن قيس، ما وراء السطور أي ما كان وما هو كائن، وبالتالي ما كانوا وما هم، وشتان ما بين المعاني[85].

أما العراق فمثلت له غياهب الخوف والقلق والاكتئاب، والوحشة واعتد بقيمه التي يملكها لا سيما وهو يخاطب كثيرة التي آوته زمن الخوف.

فقال:

حلّت فلاليح السوا ... د وحل أهلي بالجزيرة
قذفت بها غرب النوى ... فعسى تكون لنا مريرة
إني امرؤ لا يزدري ... دفعي عن اعراض العشيرة
في بيتها حسبا ومن ... أخلاق صالحها سريرة[86]

يركز على أماكن سكنى(كثيرة) العراق، وشتان اتفاق العراق والشام: ومن يركز على سلم الفضائل التي يملكها وتملكها كثيرة مثله، أيضاً فالمكان جمع غريبين ومغتربين فما زال هو غريباً في الجزيرة، وما زالت هي في العراق غريبة[87].

وجود كثيرة الانصارية التي تشابهه في الموقف(الاغتراب) جعله يقبل العراق، بل ليعرض مشكلة العراق، فهو يكرر مقولة(امرئ القيس):

أجارتنا إن المزار قريب ... وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيب[88]

ويرفض الرقيات تكريت (إحدى مدن العراق) لخلوها من القرشيين، فيها يشعر بالغربة الاجتماعية فالسياسية لذا رفضها:

أتقعد في تكريت لا في عشيرة شهود ولا السلطان منك قريب
وقد جعلت أبناؤنا ترتمي بهـا بقتل نزار والحروب حروب[89]

العراق يذكره بالقتل والخوف وما كان من قتل للحسين بن علي[90]، ولذا يرفضه ولا ملاذ له من هذا كله إلا المرأة المشابهة له في الموقف السياسي.

أما الشام فهي خاطفة الأضواء للإمويين وباهتة للرقيات ولذا ينظر إليها على أنها فصمت عرى المودة والقربى بين القرشيين، وقد سحبت بساط الخلافة من المدينة، ومن هنا تعرض إليها في ضوء يثرب ونظرته إليها، فإذا كانت موقعه الحرة فاصمة عرى المودة بين بني أمية وأهل الحجاز عامة وابن قيس خاصة فإن مرج راهط كانت العروة الثانية التي تنفلت من كساء ملك قريش لتبتدر القوة الإسلامية في الأرض.

اختار ابن قيس سكنى الرقة مع قومه عامر بن لؤي، وهناك حدثت صدامات القيسية والتغالبة وشاعرنا مغترب في الشام فمثلت له الشام الألم والهم والعداء، وتسلط اليمانية وهذا ما رفضه ضمن رؤيته الاجتماعية التي تؤمن بالوحدة القرشية فينتقد الشام التي تحرسها كلب:

أقفرت الرقتان فالقلس فهو كأن لم يكن به أنس
فالدير أقوى إلى البليخ كما أقوت محاريب أمة درسوا
أمسى بحوماتها العدو وفي أعلى أعالي حصونها حرس
وفتية كالسيوف مقتعد الـ ـخيل وجيفا والليل مدلمس
يطلب ذحلا في ذي الكلاع وفي كلبٍ قديما والذحل ملتمس[91]

والشام تمثل له الخوف للعداء الذي تحمله عشائر اليمانية للقيسية ولذا قال:

أخاف الردى من دونها أن أرومها وأرهب كلبا دونها والسكاسكا
رجال هم الأقتال من يوم راهط أجازوا الغوار بيننا والتسافكا[92]

فالشام التي شهدت قطيعة الأرحام ومقتلة الرجال وتمديد الأرواح وتغير سلم القيم لهي المكان المرفوض المكروه، ويفصح الشاعر في تعابيره ولا يميل إلى الغموض أو التضمين، فالغربة والاغتراب والرفض بادية على محيا النص وقوافيه.

وعز على ابن الرقيات ما وجده من القيسية ولم يراعوا أنه زبيري الهوى- في الجزيرة فاختلطت المبادئ والأهواء ولم يتشفع لحياته سوى قرشيته ولذا تعاظم حس الاغتراب لديه في الشام.

ومن هنا بدأت رحلاته عبر الشام من الجزيرة إلى فلسطين عله يجد الراحة[93]، وتكاد تختفي صورة الأمويين المباشرة في الشام ويعتمد على إبراز ما يوحي بذلك سماح الأمويين لغيرهم بالتحكم بالأمور، ولذا ظل دائم الاغتراب.

ثالثاً: البناء الفني ونص الاغتراب:

بدا نص الاغتراب في غير صورة وشكل فمنه:

ما كان وحيد الشريحة ومكوناته المكان والمرأة.

ما كان بشريحتين.

ما كان متعدد الشرائح.

1- ما كان وحيد الشريحة:

يعد النص وحيد الشريحة من أخطر النصوص وأقدرها على تمثيل فكرتي الغربة والاغتراب، ولنظرة في النصوص المفصحة لتينك الفكرتين نجدها تدخل في باب الغزل، ومعظمها مقطوعات، مثل نص غزلي يشير فيه إلى شرف الأنصار من خلال صاحبته كثيرة[94]، ونص مكاني يرفض فيه تكريت ضمن الحروب إبان الثورة الزبيرية[95]، ونص ثالث جعل محوره رقية. ويشير فيه إلى أن قلبه ما زال متعلقاً بها، ويعيش على أمل رضاها[96]، ونص رابع بطلته أم البنين زوج الخليفة الوليد بن عبد الملك[97]، يستجديها بعمومته ويؤكد على علاقات القربى التي تجمعهما، وكأنه يلح عليها أن ترفض فكرة اغتراب ابن قيس، وتفك عنه الحصار وقصيدة خامسة غزلية بطلتها كثيرة[98]، التي تنتمي إلى مكانين، المكان الاول المدينة المنورة وبالتالي فهي تذكره بالمكان القديم الذي كان سيشعر بالأمان به والاحساس بالوجود والوحدة بين المهاجرين والأنصار:

تلك نار أضاء سناها ... لمحب له بيثرب دار

ذكرتني حلف النبي وقد تعـ ... ـلم حلفي وحلفها الأنصار

والمكان الآخر كثيرة التي تشبهه بالغربة والاغتراب، فهي تقيم في العراق، وحضنت غربتها وغربته، ونص آخر صاحبته رقية المهاجرة، يتعوذ بها ألاّ تتركه، رقية الرمز كما يعلن مطلع النص:

أتكنى عن رقـــية أم تبوح ومن تبع الهـوى حينا فضوح[99]

ونص آخر يسدل به الستار على رمز المرأة في النص ذي الشريحة الواحدة وفيه إشارة إلى دلالات رقية بالذات، وهو نصف بيت فقط:

رقية لا رقية أيها الرجل[100].

نص يقودك إلى متاهات التفسير والتأويل مثل:

1. رقية غير موجودة، رحلت إلى الأبد وبالتالي هي الضياع والحيرة
2. رقية تغيرت وانقلبت وبالتالي يشعر بالاغتراب.
3. رقية لا تمثل الرقية لعذابه وبالتالي تخلى عن الحب وانسحب حزينا.

وتمثل المرأة في نص الشريحة الوحيدة مرتكز النص وامتداداته، فالبطلة رقية أو كثيرة أو أم البنـــين، ارتبطـــت الأولى بالهجرة والضياع، والثانية بالتشوق والعناء ومكابدة الغربة، أما الأخـــيرة فقـــد ارتبطـــت بالاســـتجداء والصراخ[101].

ومن هنا فرقية لا تعني رقية المحبوبة فقط كما وقر في اذهان الدارسين[102]، إنما تجاوزت ذلك لتعني صـــلات الرحم التي تصب في القرشية، اما دلالة كثيرة فكانت تعني كثرة الآلام التي عاناها في رحلة بؤسه وعذابه، ولـــذا لا ينساها، فكل ما مر في رحلة معاناة تذكر كثيرة لدلالة الكثرة، أما الأخيرة فقد اختلفوا فيها وجعلوها موضوعـــاً للغزل الكيدي(الهجائي)[103]،في نص الشريحة الواحدة ينشدها القربى والعمومة، ويتقرب إليها، لا ليهجوها فمكرة الهجاء أبعد ما تكون في نص الشريحة الواحدة ومن هنا اختار دلالة(أم البنين)- الأمومة والبنوة فالقرشية.

ومن أغراض الشريحة الواحدة غرض المكان، يشير إلى مكان سكن الحبيبة، فكثيرة تسكن العراق، والعراق بعيد عن المدينة المنورة على يثر بيتها، فالمكان حمل امتدادات الألم والغربة، وتظهر تكريت مكاناً مرفوضاً إذ فقد بـــه العشيرة، ورضا السلطة وشهدت مقتل المسلمين، وحمل هذا المكان الاشمئزاز وكره الحـــرب الـــتي تجـــذرت في النفوس[104]، - وتبرز دمشق، مرتبطة بأم البنين، دمشق التي هددت أحلام قريش عامة وابن قيس خاصة، رحلـــت أم البنين إلى دمشق، فدمشق تعني الاغتراب المكاني الذي لم يحتمله الأمويين:

أسلموهـــا في دمشق كما أسلمـــت وحشية وهقـــا
لم تدع أم البنـــين لـــه معه من عقله الرمقـــا[105]

ومن اللافت للنظر أنه في نص الشريحة الواحدة المكاني لم يبرز المكان بشكل جلي إنما كان اهتمامه منصباً على فكرة الاغتراب دون تحديد لموضوعاتها.

ب- النص ذو الشريحتين:

أما الشكل الثاني من نصوص الاغتراب فهو النص ذو الشريحتين، فإنه أكثر إفصاحً من الشكل الأول وتمثل موضوعات الاغتراب وأسبابه شريحة مهمة ومباشرة، وبالتالي يكون تشكيلها كالتالي:

- المقدمة وأنواعها:

غربة الحب، التشاؤم، سطوة الزمن، المكان الساخط.

- الشريحة الثانية: (شريحة الاغتراب) وانواعها:

1- المجد الأسري.

2- الرحيل إلى دمشق، تهديد الحضارة.

3- الرثـــاء.

4- الحروب والفتن القيسية التغلبية.

5- مدح مصعب بن الزبير القائد الشجاع.

6- قطيعة الرحم (عرض الواقع الاجتماعي).

وعندها يكون نص الشريحة الواحدة قد انطوى جزءا من النص ذي الشريحتين وهذا يدعم الدراسة الأفقيـة في نص الاغتراب لدى ابن قيس، فإذا نجحت الدراسة الطولية في دراسة نص الشريحة الواحدة، فإن هذا النص يصبح جزءاً من نص أكبر لأنه سيميل في الشريحة الثانية إلى الإفصاح أكثر عن موضوعات الاغتراب والرحيل. وفي هـذا اللون تبرز المرأة والمكان، والأخير لا يقل حضوراً عن الأول كما بدأ في نص الشريحة الوحيدة، أما عالم المرأة فرقية أكثر نسائه جلاءً، فرقية اختارت الهجرة والاغتراب وبالتالي نقلت اغترابها إلى الشاعر، وتظهر ضمن موضوعـات المكان المغترب الحزن والتشاؤم من قطيعة الرحم، رقية حملته حزناً دائماً لا ينقطع، وبالتالي ما رقية إلا الدولة الأموية التي بثت الفرقة والقطيعة في جسم القرشيين والدولة الواحدة، فحتى المكان الذي برزت فيه رقية كان جبل أحـد الحزين الساخط[106]، أما أم البنين فمثلت الشاعر في حالات الأمن والعدل والسكينة ولذا راح يخاطبها على أنهـا حاضر يلامسه وتلامسه هي أيضاً بدورها حلم العطاء والأمل والراحة، وممارسة اللذات أليست هي أم البنين الـتي تجمع الأبناء؟! وبالتالي يكتشف له الأمر على أنه(حلم لا يعني) ولذا عندما رأى أن الحلم لا يعني، وعقد الآمـال العراض على بني عمومته الأمويين لا يفيد اتجه إلى القطيعة معهم، ومن هنا قرر الاتجاه إلى مصعب بن الزبير يمدحه ويفديه[107]. عله يجد المصالحة مع الذات والرضا عنها ومن هنا أشار إلى فكرة أنه يسيطر علـى القرشـية- وان

تلذذت بآلامه، وبالتالي فإن بني أمية قد فقدوا السيطرة على الأمور، فها هو يتجاوز الأسوار ويفك القيود ويحصل على ملذاته حين يقول:

وأضحكها وأبكيها وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعني فأرضيها وأغضبها[108]

وكان قد قال:

ظللت على نمارقها أفديها وأحلبها
أحدثها فتؤمن لي فأصدقها وأكذبها

فإن كانت علاقة فهي علاقة مجاملة ونفاق، توقع على سبيل التهديد وبرزت الجزيرة الفراتية مكاناً موبوءاً للحروب القيسية – التغلبية، وكانت قد جرحت كرامة ابن قيس فيها[109]، وندب ماضي قريش في (الحجاز) واجتر جراحاته، ولعق أحزانه، وجعل لهذا النص مقدمة تنضح بالهموم والشيب والكبر والأسى:

ذهبت ولم تزر أهل الشفاء ومالك في الزيارة من جداء
كبرت فلست من شرط الغواني وفارقت الصبا غير الخفاء
وشاب بنوك فاستحييت منهم وأبت إلى العفافة والحياء

وينتقد في هذا النص مواقف عمير بن الحباب السلمي، وكان قد اتخذ على عاتقه رد دية السلمي لأن رجلاً من بني ذكوان كان قد ظفر به ابن الزبير، وكان قد أسر ابن قيس، وقيد مجنوبا، ثم خليّ سبيله في قوله:

فكنت هناك أحين من ثفالٍ يعدل فوقه سقط الرعاء[110]

ومما يلفت في النصوص ذات الشريحتين أن المقدمة تبرز فيها قضية الاغتراب، ولذا حاول رفض الاغتراب في الشريحة الثانية من خلال اتخاذ موقف سياسي، فرقية بدلالاتها السابقة تهجر الأمكنة الحجازية، ويحزن على فراقها، ولذا جعل وده يتجه إلى ابن الزبير المعادي للسلطة الاموية للأخذ بثأره من رقية الرافضة:

زودتنا رقية الأحزانا يوم جازت حمولها سكرانا
رائحات عشية عن قديد واردات مع الضحى عسفانا
إن تقل هن من بني عبد شمس فعسى ذاك أن يكون وكانا

ليدخل في الشريحة الثانية ببيتين اثنين فقط يتحدى فيهما السلطة بمدح الزعيم المعارض:

وابن أسماء خير من مسح الركـ ـنُ فعالا وخيرهم بنيانا
وإذا قيل من هجان قريشٍ كنت انت الفتى وأنت الهجانا

وكأني به يستبدل برقية الرمز قوماً آخرين ويبدو أنه يسوغ لنفسه اتجاهه للزبيريين وقدرته على اتخاذ موقف.

ج- النص متعدد الشرائح:

يتشكل النص متعدد الشرائح غالباً من:

1- المقدمة:

وموضوعاته المرأة والمكان:

- فالمرأة إما كثيرة وتكون في نصوص المدح.
- أو رقية في نصوص الفخر بالقرشية.
- أو الثريا في وصف غربة الزمان.
- أو عاتكة في وصف الواقع السياسي.

فصورة المرأة فيما سبق لا تختلف عنها في النصوص السابقة، وبالتالي صارت سيميائية نص الاغتراب لدى الرقيات، ولا جديد تضيفه هنا أما السيميائية الثانية فهي سيميائية (المكان) وتبرز المدينة المنورة العاصمة القديمة للوحدة الإسلامية عامة، والقرشية خاصة فيظهر حنينه للماضي لا سيما في نصوص مدح زعماء بني أمية[111] أو الحديث عن موقعه الحرة[112] التي كانت ألماً للشاعر وعلامة اغتراب لا تنتهي فيجعلها كما في النص المشهور الذي يمدح فيه مصعباً ويذكر بني أمية إذ جعل المكان مطلعاً مرتبطاً بعبد شمس:

أقفرت بعبد شمس كداء فكدي فالركن فالبطحاء[113]

فيجعلها على لسانه مرة وعلى لسانه حبيبته ثانية، والمكان الثاني(الجزيرة) المكان الذي انتقل إليه بفعل الفتوح، وشهد فيه الألم والنكاية، وحروب حديثة لا تقل ألماً عن حروب الزبيرية والأموية وهي حروب قيس وتغلب[114].

وإن لم يكن المكان مقدمة كان الشريحة الثانية وحملها اغترابه أيضاً لا سيما الاغتراب المكاني:

والشريحة الثالثة فتكون:

أ) شريحة الاغتراب المباشر.

ب) أو شريحة رفض الاغتراب.

واخترت نصاً أموياً، يمدح فيه عبد الملك بن مروان ويمثل عمق الاغتراب[115] السياسي ويتشكل من:

1- شريحة المرأة

(الأبيات من 1-9).

2- الحنين إلى الحجاز(غربة المكان)

(الأبيات من 10-12)

3- مدح الخليفة (الاغتراب السياسي).

(الأبيات من 13-23).

فشريحة المرأة بطلتها كثيرة: ويفتتحها بمطلع خطير دقّ فيه جرس الغربة والاغتراب

عادلـــــــه من كثيرة الطرب فعينه بالدموع تنســـــــكب

وكأنه يستشيرهم ويثور مشاعرهم ويذكرهم بأنه مازال يعيش الغربة والاغتراب، بل لعـــل الوقـــوف أمـــام السلطان الأموي هو نوع من أنواع الاغتراب، ولذا لم يتذكر رقية التي كان يبثها صلة الرحم وفناء القرشية، إنمـــا تذكر كثيرة وكأنه أراد أن يوصل إليهم فكرة أن الاغتراب والأسى ما زالت تلاحقه ولذا استعمل كثيرة بعلاماتهـــا ودلالاتها المفتوحة على نفسه ومن هنا بدأت دموعه بالانسكاب، ويفتتح البيت الثاني

كوفية نـــازح محلّتهـــــــــا لا أمم دارهـــــا ولا ســـــقب

بعلامة جديدة تنمي اغترابه إنها (كثيرة) كوفية وغريبة مثله، ثم ينمي فكرة الفجائعية، فجائعية الحب هو يحبـــها و لم يصلها، وكثيرة تركت جرحاً في نفسه لا يندمل، إنه جرح الضياع في الكوفة ثم يستعمل علامة ثالثة لتعمـــــق فكرة الاغتراب في المقدمة فهن ينكرن ما رأين، أي الشيب رجل اعتلاه الشيب وبالتالي منع من الحب بفعل الزمن، ورفض المرأة. لكن حاجة ما زال يملكها ويتمنى توصيلها إلى المرأة، فكرة التوصيل، توصيل الحاجة، هذا ما يشـــيره وكأنه أراد أن يوصل إلى الممدوح فكرة اغترابه في الدولة، وحاجته إلى رضا السلطان لإنهاء مرحلة الاغـــتراب لا سيما أن ليس في موقفه ما يريب بل على العكس إنه يحمل كل الحب، ألم يعلن انه يحب الأمويين بـــل الوحـــدة القرشية في غير نص؟!

والشريحة الثانية:

غربة المكان:

تبدأ بالعلامة الأسلوبية التي ميزت ديوان الرقيات(يا حبذا)

يا حبذا يثرب ولذتهـــــا من قبل أن يهلكوا ويحتربوا

وقبل أن يخرج الذين لهم فيها السناء العظيم والحسب

يوظف المكان الذاكرة الذي لم يشعر فيه بالغربة، إنه المكان الجماعة، المكان الوحدة، المكان الأمان النفســـي، والعدل والرفعة؛ مجرد الحنين إلى مكان سياسي سابق(يثرب) فيه استثارة للممدوح الذي رحل إلى دمشق، ولكـــن

يجعل خروج الأمويين منه بفعل الحروب الزبيرية الأموية وفي هذا مجانبة للواقع والتاريخ. وتزييف الحقائق شكل من أشكال الاغتراب في هذه الدولة.

الشريحة الثالثة:

شريحة المدح أو الاغتراب السياسي:

ويشير فيها إلى نظام الملك السياسي، الذي رفضه الحزب الزبيري ومنهم الشاعر، وهو لون من ألوان الاغتراب السياسي، وهذا لا يعني ألبتة من خلال منطق نمو الشرائح إنه يمدح رغبة في المدح، أو رغبة برفض قيمه السياسية السابقة ليتوقف عند الخليفة فيمدحه بأبيات أثارت حفيظته – وان حاول الدبلوماسية– فنظام الخلافة والعدل قد انتهى أيضاً حين قال:

خليفة الله فوق منبره جفت بذاك الأقلام والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

لا يختلف اثنان على أن التاج مظهر جميل، ولكن النظام السياسي لا يقوم على التاج والجمال الخارجي، إنما يقوم على العدل والأمن والنور وهذا ما حاول الشاعر كشفه، و لم يغب عن باله مطلقاً ما كان قد قاله في مصعب بن الزبير (شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء)

والشيعة تجعل صباحة الوجه شرطاً من شروط الإمامة وربما تسربت إليهم[116]، من الفكر المعارض للدولة الأموية فكرة الزبيرية الذين رأوا مصعباً حالة جمالية استثنائية ناهيك عن أن هذا اللون من المدح لمصعب كان –كما مر معنا– قد أثار حفيظة الدولة، وكثير من الشعراء كانوا قد توقفوا عند قبح الخلفاء كما هو عند ليلى الأخيلية:

أأجعل مثل توبة في نداه أبا الذبان فوه الدهر دامي[117]

وتقصد عبدالملك بن مروان.

وهو الأمر نفسه الذي جعل الوليد بن يزيد يتباهى بكماله وبهائه:

علا لاني واسقياني من شراب أصفهاني
كللاني توجاني وبشعري غنياني[118]

ليجعل من نفسه قطب رحا الأمة، وصنع فضاءً خاصاً لذلك وأعد سلطة الملك وسلطة الخمرة، وسلطة النص، السلطة التي تقود إلى الفناء في الآخرين. وكذلك كان مصعب اختياراً ربانياً وجمالاً ربانياً وضعاً في الأرض وبوجوده راحة البشر والمسلمين؛ بينما الخليفة ملك يثير الخوف فهو أسد وصاحب لسان سليط، والسلاطة

والسلطة هذه كلها علامات تدعم فكرة الاغتراب، الاغتراب السياسي المتمثل بوجود السلطان ثم اضطرار الشاعر بفعل الخوف والقوة وسلاطة اللسان إلى تعميق الاغتراب ففارق الشاعر مبادئه شكلا ليقف أمام ممدوحه الجديد اغتراباً وعجزاً.

الخاتمة:

لعل هذا البحث كان قد كشف عن مظاهر الاغتراب التي عاناها ابن قيس الرقيات، وكيف استطاع أن يوازن بين الفكرة والبناء الفني، فكان هناك (نص الاغتراب)، وقد بدا بأشكال عدة:

أ. منه ما كان وحيد الشريحة وعرض فيها:

اغتراب المكان أو اغتراب الحب.

ب. ومنه ما كان بشريحتين:

1. شريحة المقدمة وعرض فيها اغتراب الحب أو اغتراب أو اغتراب الذات.
2. والشريحة الثانية: وكانت شريحة الاغتراب الرئيسية وعرض فيها المجد الأسري المفقود، وحضارة دمشق التي هددت المدينة المنورة، والحروب، وقطيعة الأرحام.

ج. ومنه ما كان متعدد الشرائح:

وأضاف إلى الشكلين السابقين شريحة ثالثة فكانت إما ـــ رفض الاغتراب، ـــ أو العجز أمام الواقع.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في تلمس ملامح الاغتراب واقعاً، والاغتراب بناءً لدى ابن قيس الرقيات.

الهوامش

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر: 1990: مادة غربه.

2- الاغتراب في الشعر الاموي: فاطمة محمد السويدي، ط-997، مكتبة مدبولي: ص3.

3- الاغتراب: ريتشارد شاخت: ترجمة كامل يوسف حسين: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص300.

4- نفس المصدر: 300.

5- الاشارات الالهية: ابو حيان التوحيدي: تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1950،ص81.

6- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

7- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

8- ديوان الشريف الرضي: دار صادر: 189/1، وأنظر الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي: عزيز السيد جاسم: دار الأندلس ط1، 1986.

9- رسائل ابن باجة الإلهية: تحقيق ماجد فخري- بيروت: 1968: ص43.

10- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج بن مسلم دار إحياء التراث العربي_1972.الحديث رقم 208.

11- الاغتراب سيرة مصطلح: محمود رجب: دار المعارف،ط2-1986: ص47.

12- الاغتراب سيرة مصطلح: محمود رجب: ص: 159.

13- الاغتراب سيرة مصطلح: محمود رجب: ص: 11.

14- نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع: السيد علي شتا: مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية 1993ـ ص217.

15- ولفتت الغربة والاغتراب نظر كثير من الدارسين فكانت دراسة (الغربة في الشعر الجاهلي)، لعبد الرزاق الخشروم، والاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى، لعزيز السيد جاسم، منشورات اتحاد الكتاب العرب.دار الأندلس-بيروت-1986، والوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وهيب طنوس.

16- حديث الأربعاء: طه حسين: 249/1.

17- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني: 84/5.

18- المصدر السابق: 85/5.

19- المصدر السابق:92/5.

20- المصدر السابق: 89/5، 84.

21- المصدر السابق:86/5.

22- المصدر السابق: 86/84/5.

23- ديوان عبد الله بن قيس الرقيات: تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر: ص113 وسيشار اليه بالديوان.

24- الديوان: 116/115.

25- الديوان: 131/129، السكاسك: بنو السكسك بن اشرس بن كندة.

26- الديوان: 131-132، الذحل: الثأر. الرواتك: المتقاربة الخطو. العناجيج: جياد الإبل. المصاليت: السريعة. البواتك: القواطع. ضبارك: كثيرة.

27- الديوان:134-135، شؤبوب: الدفعة من المطر. الوبيل: المهلك. الحُج: الحجاج. العائذ البلقاء: الناقة البيضاء.

الوجيف: ضرب من سير الإبل.

28- الديوان:95-96، البرى: الخلاخيل. الطف: إشارة إلى مقتل الحسن بن علي في كربلاء، سنة 61هـ.

29- الديوان: 23 -24.

30- الديوان: 98-100، المروة: الحجارة البيضاء. الجب: قطع السنام. يزيد: هو ناقل النعي.

31- الديوان: 102.

32- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: عبد القادر القط،: دار النهضة العربية، بيروت ط2-1981: ص41.

33- الديوان: 88.

34- الديوان: 92-94.

35- الديوان: 8-9.

36- الديوان:11/10 سديف: السنام. النهاء: جمع نهي وهو الغدير. المحتبي: المشتمل كالأصباء: رياح الجنوب. الشاحيات: الفاتحات أفواههن. السدم: الفحل: القحم: الأمر الشاق، النضار: شجر الأثل النضرة. الخروع: نبات ضعيف العود. الغرب: النبات الضعيف.

37- الديوان: 14-15.

38- الاغتراب/: محمود رجب: منشأة المعارف- الاسكندرية، ص: 60.

39- لذاتي والموضوعي في شعر ابن قيس الرقيات: أمل نصير، دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية: مجلد 28/ عدد1-2001، ص:241-242.

40- الديوان: 63.

41- الديوان: 63.

42- الديوان: 76 / 77.

43- الأغاني: 81/80/5.

44- القاموس المحيط: الفيروز ابادي: مادة رقى.

45- الديوان: 152.

46- الديوان:96 ، انظر، ص: 128-132.

47- الديوان:131.

48- الديوان: 140، تغشمرا: مضى. شيزر: حصن قريب من حماة. معان: مزل.

49- الديوان: 140.

50- الديوان: 88.

51- الديوان:ص: 142 وما بعدها.

52- الصفحة نفسها، مراجح: حلماء. الضنء: النسل.

53- الديوان: 109.

54- الديوان: 109.

55- الديوان:111.

56- الديوان:69.

57- الديوان:72، الرهق: الشدة.

58- الديوان: 49.

59- شرع المعلقات السبع: الزوزني-مكتبة المعارف -بيروت 1994، ص94.

60- الديوان:99-100.

61- الديوان:101.

62- الديوان:102.

63- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد تحقيق حسن تميم- مكتبة الحياة 1963: 273/4.

64- الديوان:51.

65- الديوان: 66.

66- الديوان: 108 انظر، ص:101.

67- الديوان: 61.

68- الديوان: 121.

69- سورة النمل: 41-42.

70- الديوان: 142.

71- الديوان: 156-157.

72- الديوان: 48 وما بعدها.

73- الديوان: 48.

74- الديوان:112-113، الشانئة: المبغضة.

75- في الشعر الإسلامي والأموي: عبد القادر القط: دار النهضة العربية- بيروت، 1407هـ-1987م، ص:113.

76- الديوان: 52-53، شقفا: فرقا، الجؤذر: ولد البقرة.

77- الديوان: 87-88، كداء: جبل بمكة. كدي: جبل قريب منه: الركن: الركن اليماني. بلدح: وادٍ في طريق التنعيم. الأبواء: قرية في المدينة.

78- الديوان: ص: 4.

79- الديوان : 112.

80- الديوان: 75.

81- الديوان: 76.

82- الديوان: 24.

83- الديوان: ص4.

84- الديوان: ص5.

85- الديوان: 151 وما بعدها.

86- الديوان: الصفحات من 7 -13.

87- الديوان: الصفحات من 44-45.

88- الديوان:61.

89- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط4، دار المعارف-ص: 357.

90- الديوان: 69.

91- الديوان: 184، وانظر: 96، 130.

92- الديوان: 125 -126.

93- الديوان:131.

94- الديوان: 107-110.

95- الديوان: 61.

96- الديوان: 69.

97- الديوان:137.

98- الديوان: 49.

99- الديوان: 23-24.

100-الديوان: 63.

101-الديوان: 188-انظر خزانة الادب ولب الباب العرب: عبد القادر البغدادي: تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب-1979م-3-226.

102-الديوان: 56-149.

103-امل نصير: 242-243.

104-طه حسين، حديث الأربعاء: (سبق الإشارة إليها): وأمل نصير: 242.

105-الديوان: 69.

106-الديوان: 53.

107-الديوان: 75.

108-الديوان: ص 12.

109-الديوان: ص 122 وما بعدها.

110-الديوان: 104-105 وانظر ص 109.

111-الديوان: 156-157.

112-الديوان: ص1.

113-الديوان: 132 -151.

114-الديوان: 87.

115-الديوان: 107 سبقت الإشارة إليه.

116-الديوان: 1 -6.

117-الرؤية السياسية والاجتماعية في شعر الشريف الرضي: إنعام رواقة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك 1989، ص16.

118-ديوان ليلى الأخيلية: تحقيق خليل إبراهيم عطية، وجليل العطية: ص113.

119- شعر الوليد بن يزيد: تحقيق حسين عطوان-مكتبة الأقصى-عمان، ص123

المراجع

1- القرآن الكريم.

2- الأحيلية (ليلى): الديوان تحقيق خليل إبراهيم عطية- وجليل عطية.

3- الأصفهاني: (أبو الفرج علي بن الحسين) الأغاني: شرحه وكتب حواشيه: عبد -علي مهنا- دار الفكر للطباعة والنشر، ط1-1986.

4- ابن باجة: رسائل ابن باجة الإلهية- تحقيق ماجد فخري- بيروت- 1968.

5- البغدادي: (عبد القادر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: تحقيق عبد السلام هارون-الهيئة المصرية العامة للكتاب-1979.

6- التوحيدي: (أبو حيان): الإشارات الإلهية: تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة.

7- ابن حجر: (امرؤ القيس): الديوان: تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط4: دار المعارف.

8- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة : تحقيق حسن تميم.

9- حسين (طه): حديث الأربعاء: دار المعارف.

10- رجب: (محمود): الاغتراب سيرة مصطلح- دار المعارف-ط2- 1986.

11- الرقيات: (عبيد الله بن قيس): الديوان: تحقيق محمد يوسف نجم- دار صادر.

12- رواقة: (إنعام): الرؤية السياسية والاجتماعية في شعر الشريف الرضي- رسالة ماجستير- جامعة اليرموك- 1989.

13- الزوزني: شرح المعلقات السبع- مكتبة المعارف- بيروت-1994.

14- السويدي: (فاطمة محمد حميد): الاغتراب في الشعر الأموي: مكتبة مدبولي-ط1-1970.

15- شاخت (ريتشارد): الاغتراب: ترجمة كامل يوسف حسين- المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت-1980.

16- الشريف الرضي(محمد بن الحسين): الديوان: دار صادر.

17- الفيروز أبادي: القاموس المحيط- دار صادر.

18- القط (عبد القادر) 1: في الشعر الإسلامي والأموي- دار النهضة العربية – بيروت –1987. 2: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: دار النهضة العربية – بيروت- ط2- 1981.

19- نصير(أمل): الذاتي والموضوعي في شعر ابن قيس الرقيات – مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية- الجامعة الأردنية – مجلد28/ عدد 1.

20- ابن مسلم (مسلم بن الحجاج بن مسلم) -صحيح مسلم- دار إحياء التراث العربي 1972م.

21- ابن منظور(جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب – دار صادر.

22- ابن يزيد (الوليد): شعر الوليد بن يزيد، تحقيق حسين عطوان- مكتبة الأقصى – عمان.